

رقم الدرس ٤١٨
الأربعاء ٧-٥-١٤٣١ هـ

شرح سنن الترمذي كتاب الجنائز

المُلَقَّاة بِجَامِعِ الْمَلِكِ سُعُود - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِجَدَّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الدُّكْتُور

مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُخْتَارِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُزَيْدِ الْجَنْبِي الشَّنْقِيطِيِّ
الْمُدَرِّسِ بِالْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ

وَعَضُو هَيْئَةِ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ بِالْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ

وَمُقَوِّضِ الْإِفْتَاءِ بِمَنْطَقَةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حَفَظَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَفَعَ بِعِلْمِهِ وَغَفَرَ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّرُوسُ لَمْ تُرَاجَعْ مِنْ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ - حَفَظَهُ اللَّهُ - .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

يقول الإمام الحافظ الترمذي - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: [بَابُ مَا جَاءَ فِي قَتْلِ أَحَدٍ وَذِكْرِ حَمَزَةٍ].

قال - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا أَبُو صفوان عن أسامة بن زيد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عن ابن شهاب عن أنس بن مالك - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: - ((أتى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على حمزة يوم أحد، فوقف عليه فرآه قد مُثِّلَ بِهِ، فقال: ((لولا أن تجد صفيئة في نفسها لتركته حتى تأكله العافية حتى يُحسَرَ يوم القيامة من بطونها))، قال: ثُمَّ دعا بِنَمْرَةٍ، فكفنه فيها، فكانت إذا مُدَّتْ على رأسه بدت رجلاه، وإذا مُدَّتْ على رجله بدا رأسه، قال: فكثرت القتلى، وفلئت الثياب، قال: فكُفِّنَ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالثَّلَاثَةُ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ، ثُمَّ يُدْفَنُونَ فِي قَبْرِ وَاحِدٍ، فجعل رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يسأل عنهم: أيهم أكثر قرآنًا، فيقدمه إلى القبلة، قال: فدفنهم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولم يصل عليهم)).

قال الإمام أبو عيسى - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - حديث أنس حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث أنس إلا من هذا الوجه.

الشَّح:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خير خلق الله أجمعين، وعلى آله وصحبه، ومن سار على سبيله ونهجه، واستن بسنته إلى يوم الدين، أمَّا بعد:

فقد ترجم الإمام الحافظ الترمذي - رَحِمَهُ اللَّهُ - بهذه الترجمة، والتي تتعلق بشهداء أحد، والواقع أن هذا الحديث الذي ذكره - رَحِمَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ - مشتمل على جملة من الأحكام التي تتعلق بالشهيد، وما ينبغي أن يكون في أمره.

وقد أجمع العلماء - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - على فضل هذه الطاعة والقربة، وهي أن يموت الإنسان شهيداً في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، مبتغياً مرضاة الله، مقبلاً غير مدبر، على الوجه الذي سنه الشرع.

فهذه المنزلة العظيمة اختصها الشرع بأحكام:

منها ما يتعلق بمسائل التغسيل والتكفين، ومنها ما يتعلق بالصلاة عليه، ومنها ما يتعلق بعلو الدرجة، وحسن العاقبة عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - في الآخرة.

ونظراً لاختصاص هذا النوع من الموتى بهذه الأحكام الشرعية والمنازل العظيمة عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- اعتنى أئمة الحديث وأئمة الفقه أيضاً ببيان ما حُصِّوا به من أحكام.

وهذا الحديث الذي ذكره -رَحِمَهُ اللهُ- فيه جملة من المسائل الشرعية، والتي تتعلق بالشهداء.

والشَّرْطُ فِي الشَّهِيدِ حَتَّى تَكُونَ شَهَادَتُهُ مَعْتَبَرَةً: أن يكون قاصداً إعلاء كلمة الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ولذلك قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كما في الحديث الصحيح: ((مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))، فهذا هو الأصل في الشهادة أن تكون نيته محمودةً شرعاً، قاصداً بها وجه الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ومؤثراً بها ما عند الله على هذه الدنيا الفانية.

وليس هناك مقام أعظم من أن يقدم الإنسان روحه في سبيل الله -عَزَّ وَجَلَّ- وسبيل مرضاته ومحبته، ولذلك أنزله الله -عَزَّ وَجَلَّ- المنازل العُلى في الجنة، واختصه بكثيرٍ من الخصائص والفضائل والنوائل التي لا ينالها إلا من قَاتَلَ في سبيل الله.

وفي الحديث الصحيح عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: ((مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)) والمراد بالكلم الجُرْحُ، ((إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَجُرْحُهُ يَنْثَعِبُ دَمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكِ)). وثبت في الحديث الصحيح عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((أَنَّهُ يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَأَنَّهُ يَشْفَعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِهِ)) إلى غير ذلك من المنازل العظيمة، والمناقب الكبيرة، حتى إنَّه لا يجد من حَرَّ قَبْضِ رُوحِهِ إِلَّا كَقَرَصَةِ النَّحْلِ، وهذا إشارة إلى علوِّ درجته، وأنَّه يوقى الفَتَانُ وَأَنَّ رُوحَهُ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ حُضِرَ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ، تشرب من أنهارها، وتأكل من ثمارها تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، كما في الحديث الصحيح عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

فهذه المنازل العظيمة والدرجات العلى جعلها الله -عَزَّ وَجَلَّ- لهؤلاء الذين باعوا أنفسهم، فربحوا في بيعهم، ولذلك بيَّن الله صفقتهم الراجحة، وأنَّه اشترى منهم أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُقْتَلُونَ، وَيُقْتَلُونَ.

فهذا المقام الشريف والمنزل المنيف كان لأصحاب رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، و-رَضِيَ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ- فيه قَصَبُ السَّبْقِ، فقد جاءت السِّيَرُ والآثار الصحيحة عنهم -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- أنهم جاهدوا في سبيل الله حقَّ جهاده، وأنَّهم قدموا الغالي والرخيص، والنَّفْسَ والنَّفِيسَ من أجل مرضاة الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فناصروا الدِّينَ، وحَمَوْا الدِّينَ على الوجه الذي أَرْضَى رَبُّ الْعَالَمِينَ -فَرْضَى اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ وَبَشَّرَهُمْ بِجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا-.

وفي الحديث الصحيح عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَقُتِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَرَامٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وَالِدُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -رَضِيَ عَنْهُمَا- جَعَلَ جَابِرٌ يَكْشِفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِ أَبِيهِ وَيُكِي، فَقَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((ابْكِيهِ أَوْ لَا تَبْكِيهِ، مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ حَتَّى رَفَعْتَهُ إِلَى السَّمَاءِ)).

وفي الحديث الآخر قال: ((يا رسول الله، أخبرني عن أبي، فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتَ وَتَعَزَّيْتَ، قَالَ: يَا جَابِرُ، إِنَّهَا جَنَاتٌ، وَإِنَّ أَبَاكَ قَدْ أَصَابَ الْفَرْدَوْسَ الْأَعْلَى مِنْهَا)).

فكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَسْبَقَ الْأُمَّةِ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَعْرَفَهُمْ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَأَحْرَصَهُمْ عَلَى الْخَيْرِ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْمِقْدَادُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: (وَاللَّهُ، لَا نَقُولُ لَكَ مِثْلَ مَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا، إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ).

وَخَرَجُوا إِلَى بَدْرٍ وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَأَرْبَعَةٌ عَشَرَ نَفْسًا أَمَامَ كَثَرٍ مِنَ الْعَدُوِّ، وَقُوَّةٍ وَشُوكَةٍ وَغَلْبَةٍ، وَمَعَ مَا لِلْعَدُوِّ مِنَ السَّمْعَةِ وَالْجَاهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا، فَكَانُوا -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ- هُمْ أَسْبَقُ النَّاسِ إِلَى حَصُولِ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الْعَظِيمَةِ، وَهِيَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَلَمَّا خَرَجُوا، خَرَجُوا لَطَلَبِ الْعِزِّ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَمَامَ الْمَوْتِ، وَأَمَامَ الشَّهَادَةِ، وَأَمَامَ الْقَتْلِ وَالْقِتَالِ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، وَأَخْبَرُوا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُمْ مَعَهُ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَخُوضَ بِهِمُ الْبَحْرَ خَاضُوا مَعَهُ، كَمَا قَالَ قَائِلُهُمْ: (وَاللَّهُ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بَنَا الْبَحْرِ فَخَضْتُهُ، لَخَضَنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرَّرَ بِهِ عَيْنُكَ).

فَصَدَقُوا وَبُروا، وَأَرَى اللَّهُ نَبِيَّهَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِيهِمْ مَا قَرَّتْ بِهِ عَيْنُهُ، فَكَانُوا -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ- أَسْدُ الشَّرَى، وَرِجَالُ الْوَعَى الَّذِينَ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَمِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ إِلَى مَا بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُوفِيًا بِعَهْدِ اللَّهِ، قَائِمًا بِحَقِّ اللَّهِ، اللَّهُمَّ اجْزِهِمْ عَنَّا وَعَنِ الْإِسْلَامِ وَعَنْ نَبِيِّكَ خَيْرَ مَا جَزَيْتَ صَحْبًا عَنْ صَحْبَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْزِلْهُمْ الدَّرَجَاتِ الْعُلَا، واجْمَعْنا بِهِمْ مَعَ الرِّضَا، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

وَكَانَتْ غَزْوَةُ أُحُدٍ هَذِهِ الَّتِي تَرْجِمُ لَهَا الْمَصْنِفُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- مِنْ أَشْهُرِ الْغَزَوَاتِ الَّتِي ابْتَلَى فِيهَا الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ، وَكَانَ فِيهَا الْبَلَاءُ عَظِيمًا، فَشُجَّ وَجْهُهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ -بِأَيِّ وَأَيِّ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، وَمَسَحَ الدَّمَ مِنْ عَلَى وَجْهِهِ، وَقَالَ: ((كَيْفَ يَفْلَحُ قَوْمٌ شَجُّوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ

-صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-؟!))، ورأى -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في هذا اليوم من البلاء الشديد والبلاء العظيم ما الله به عليم، فسقط في الحُفْرَةِ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- ورأى عَمَّهُ مجنولاً على الأرض، قد بُقِرَتْ بطنُهُ، ومُثِّلَ به -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، ورأى من أصحابه وأحبابه تلك المشاهد المؤلمة، ولكنه تسلى وتعزى -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- لعلمه بعظيم ما أعدَّ الله لهم من الدرجات العلاء، وكان -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أثبت الناسِ جناناً، وأوضحهم حجةً وبرهاناً، فكان على بينةٍ من ربه -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

فهذا اليوم كان من أيام الله المشهودة، ومن الغزوات الشديدة المعدودة التي أُبْتُلي فيها المؤمنون وزُلِّلوا فيها زلزالاً شديداً، وكان من مشاهد البلاء ما وَرَدَ في هذا الحديث من رؤية النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لقريبه وعمِّه وحبيِّه حمزة بن عبد المطلب، أسد الله ورسوله -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

عن أنس بن مالك -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: ((أَتَى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على حمزة يوم أُحُدٍ، فوقف عليه فرآه قد مُثِّلَ به))؛ لما انتهت المعركة قام -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يتفقد أصحابه، وهذا هو شأنه، وشأن المعارك أنَّه إذا أُنتَهِيَ منها تفقد الناسُ ما يكون من المصاب والبلاء، فوقف -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- هذا الموقف على عمِّه، وكان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- أسد الله ورسوله، كان من أشدَّ الناس شكيمة في الحرب، وكان معروفاً بالشجاعة والبسالة، وكان بنو هاشم معروفين بذلك، فقاتل -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- يوم أُحُدٍ قتالاً شديداً، وأقبل، وكَرَّ، وفَرَّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، حتى رماه وَحْشِيٌّ بحرْبته ورُمِيَ على غِرَّةٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، لم يقتل وجهاً لوجه؛ وهذا من شجاعته وقوته، وجاء وصفه في السير: (أنَّه كان كالبعير، لا يَهْدُ على شيءٍ إلا قضى عليه -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-)؛ من قوته وبأسه في الحرب، وهذا هو شأن المؤمن الصادق، فإنَّه تحرَّكه العقيدة، ويجرُّه الإيمان بالله وإرضاء الله -عَزَّ وَجَلَّ- بكسر شوكة الذين كفروا وتمردوا على الله -عَزَّ وَجَلَّ- وعتوا على دينه وشرعه، فرماه وَحْشِيٌّ بحرْبته، فسقط -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وبعدها تناولته السيوفُ، بُقِرَتْ بطنُهُ، ومُثِّلَ به، وعادةً قد يُقْتَلُ القتيْلُ في المعركة، وهذا حال، وأن يُمَثَّلَ به، حال آخر.

والتَّمثِيلُ: أن تُقَطَّعَ يَدُهُ، أو يُجَدَّعَ أَنْفُهُ، فتقطع يده، أو تقطع رجله، أو تبقر بطنه.

فبُقِرَتْ بطنُ حمزة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وقيل: أُسْتُلَّ منها كبده -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وكان مشهدهً مُروِّعاً، ولذلك لما جاءت صفيَّةُ أُختُهُ، عمَةُ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقد بلغها خبرُ استشهادِهِ، جاءت لا تلوي على شيءٍ من شدة الفاجعة، وراها النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقال

فصاح: ((المرأة)) يعني عمته، فتلقاها الزبير -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في صدرها، فمنعها؛ حتى لا ترى ما كان عليه حمزة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

فوقف -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- على عَمِّهِ في هذه الحالة، وهذا يدلُّ على دلالةٍ عظيمةٍ، منها: أَنَّ كُلَّ مَنْ تَحْمِلُ هَمَّ الدِّينِ لَا بَدَّ وَأَنْ يَبْتَلِيَ فِي نَفْسِهِ وَحَبِّهِ وَقَرَابَتِهِ، فَقَدَّمَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- الْكَثِيرَ سَلُوةً لِلأُمةِ، وَعِزَاءً لَهَا، وَلَكِي تَسِيرَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ، طَرِيقَ الْإِسْلَامِ الْمُبْنِيِّ عَلَى الْإِسْتِسْلَامِ وَالْعِبُودِيَّةِ لِلَّهِ بِتَقْدِيمِ الْغَالِي وَالرَّخِيسِ، دُونَ الضَّعْفِ، وَدُونَ حَوْرٍ، وَدُونَ وَهْنٍ، وَدُونَ جُبْنٍ، وَدُونَ خَوْفٍ، وَدُونَ وَجَلٍّ، فَهَذَا هُوَ الصَّدْقُ مَعَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَوَقَفَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- مَا وَقَفَ وَقُوفَ الْخَانِعِ، وَلَا وَقَفَ وَقُوفَ الدَّلِيلِ -بِأَيِّ وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، وَقَفَ وَقُوفَ الشَّامِخِ الْمُؤْمِنِ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، الصَّابِرِ عَلَى الْبَلَاءِ، الْمُحْتَسِبِ الْأَجْرَ عِنْدَ الْامْتِحَانِ وَالْبَلَاءِ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، فَوَجَّهَ وَجْهَهُ لِلْحَيِّ الْقَيُومِ الَّذِي لَا تَأْخُذُهُ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ بِالْبَشَارَةِ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جُنْدِلُوا عَلَى الْأَرْضِ أَتَاهُمْ فِي الْمَنَازِلِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَتَاهُمْ أَفْضَلُ إِلَى رَبِّهِمْ فِي ذَلِكَ الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ، وَمِنْ جَوَارِ ذَلِكَ الْجَبَلِ الَّذِي أَحْبَبْنَا وَنُحِبُّهُ، سَالَتْ دِمَاؤُهُمْ، وَرُفِعَتْ إِلَى اللَّهِ أَرْوَاحُهُمْ؛ لَكِي يَنَالُوا سَعَادَةً لَا شِقَاءَ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَرَحْمَةً لَا عَذَابَ بَعْدَ أَبَدًا، وَقَفَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَنَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَشَارَةِ، فَبَشَّرَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَصْحَابَهُ، وَبَشَّرَ الْأَحْيَاءَ بِمَا نَالَهُ هَؤُلَاءِ السَّعْدَاءُ وَبَيَّنَّ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- هَذِهِ الْبَشَارَةَ أَتَاهُمْ وَقَفُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَسَأَلَهُمْ أَنْ يَتِمَّنُوا، فَكَانَتْ أَمْنِيَّتُهُمْ أَنْ يَعُودُوا إِلَى الدُّنْيَا؛ لَكِي يُفْتَلُوا ثَانِيَةً فِي سَبِيلِهِ.

وكان في القرآن قوله تعالى: (بَشِّرُوا عَنَّا إِيَّاهُمْ أَنَّا قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا، فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا) حَتَّى نُسَخِّتَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَكَانَ لِشُهَدَاءِ أُحُدٍ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الْعَظِيمَةِ وَالْمَنَاقِبِ الْجَلِيلَةِ الْكَرِيمَةِ.

وَمَا رَأَاهُمْ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بِهَذِهِ الْأَحْوَالِ، قَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((زَمَلُوهُمْ فِي ثِيَابِهِمْ؛ فَإِنِّي شَهِيدٌ لَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِمْ)) أَيُّ أَنَّهُ شَهِيدٌ لَهُمْ أَنَّهُمْ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَنَّهُمْ نَصَرُوا دِينَ اللَّهِ، وَأَعْلَوْا كَلِمَةَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-، وَهَذِهِ مَنْقَبَةٌ ثَانِيَةٌ، وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَجَابِرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: ((إِنَّ اللَّهَ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ، وَقَالَ: تَمَنَّ عِبْدِي، قَالَ: أَتَمْنَى أَنْ أَعُودَ فَأُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ ثَانِيَةً)).

وأعدَّ الله لهم هذه المنزلة العظيمة؛ لما كانوا عليه من الصدق والثبات، وكانوا عليه من اليقين بما عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- من حسن العاقبة إذا هم قاتلوا في سبيل الله قتال المحتسبين المخلصين لإعلاء هذا الدِّين.

فقال: ((لولا أن تجدَ صفيةً في نفسها)) الوجد: هو الحزن، وهذا يدلُّ على كرم حُلُقِ النبي -صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ورحمته.

و((صفية)): صفية بنت عبد المطلب، أخت حمزة بن عبد المطلب، وهي عمَةُ النبي -صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-.

((لولا أن تجدَ صفيةً)) فيه دليلٌ على شفقتِهِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

فيه دليلٌ على تفقده لأحوال النساء، فالنساء فيهنَّ ضَعْفٌ، وامتنع -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- من شيءٍ مراعاةً لخاطرها، وجبراً لخاطرها، وهذا يدلُّ على أَنَّهُ ينبغي التفطنُ لحال النساء، فَإِنَّ فيهنَّ من الضعف ما يدعو إلى العطف والإحسان والبر من الرِّجال.

ولذلك ثبت في الحديث في الصحيح عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَنَّهُ قال: ((إِنِّي أُحْرِجُ حَقَّ الضعيفين: المرأة، واليتيم))، فالمرأة ضعيفة، فإذا كانت من القرابة كان حَقُّها أعظم.

فهذه عمَةُ النبي -صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فراعى حالها، مع أَنَّهُ لو تركه حتى تأكله السباع والعافية والطير الجارح فَإِنَّ هذا أعظم وأعلى وأكثر ابتلاءً لحمزة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، لكنه مؤمٌّ للحَيِّ، ومؤذٍ للحَيِّ.

وهو ممتنعٌ شرعاً أيضاً؛ لأنَّ الله سَنَّ في الأموات أن يُقْبَرُوا، وأن يُدْفَنُوا، ولذلك أرسل الله العُرابَ إلى هابيل؛ لكي يريه كيف يوارى سوأة أخيه، وهذا هو الأصل، قال تعالى: {ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ}، فالأصل أَنَّ الميت يُقْبَرُ، ولكنَّ النبي -صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَصَدَ بهذه العبارة بيان عظيم المنزلة، وعظيم الدرجة لهؤلاء الذين أُسْتُشْهِدُوا في سبيل الله -عَزَّ وَجَلَّ-، حتى أَنَّهُ لا يبالي، حتى أَنَّهُم لو تُرِكُوا للطير، وتُرِكُوا للعافية من سباع الطير، وسباع الدواب تأكل أجسادهم.

وهذا الحقيقة فيه إشارة؛ لأنَّ كثيراً ما تكون الغزوات يحصل فيها شيءٌ من هذا، فكثيراً ما كان في الغزوات يُقْتَلُ فيها العددُ الكثيرُ، ويصعبُ تمييزُ المسلمين من غيرهم، فيحزنُ المسلمون لموتاهم ففي هذا الحديث سلوى، ولذلك كما قال أبو حمزة الشاري يصف أصحابه: (فكم من كَفٍّ في منقارٍ طائرٍ طالما

اعتمدَ عليها صاحبُها في السجودِ بينَ يدي الله، وكم من عينٍ في فمٍ طائرٍ طالما بكى صاحبُها من خشيةِ الله).

فالمقصودُ أنَّ هذه الأجساد إذا أكلتها السباع، أو انتهشتها السباع، سواءً في الشهادة أو غيرها هذا لا يضُرُّ، ولا يؤثُرُ؛ لأنَّ العبرةَ بحال الإنسان.

وفيه دليل على أنَّ الجسدَ إذا تَمَزَّقَ وذهبَ أشلاءً في قتله أو موته أنَّ الله قادرٌ على جمعه، كما في الصحيح عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: ((إِنَّهُ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِأَوْلَادِهِ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَحَرِّقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذَرُوا نَصْفِي فِي الْبَرِّ، وَنَصْفِي فِي الْبَحْرِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ قَدِرَ اللهُ عَلَيَّ لِيُعَذِّبَنِي عَذَابًا لَا يَعْذِيبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ))، قَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((فَلَمَّا مَاتَ فَعَلُوا بِهِ مِثْلَ مَا قَالَ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى الْبَرِّ: أَنْ اجْمَعْ مَا فِيكَ، وَأَوْحَى إِلَى الْبَحْرِ: أَنْ اجْمَعْ مَا فِيكَ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ، قَالَ: عَبْدِي، مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: خَشِيتُكَ يَا رَبِّ، قَالَ: قَدْ غُفِرَتْ لَكَ)).

فالمقصودُ أنَّ البعض يقول: كيف يعذب الإنسان وقد تَمَزَّقَتْ أَشْلَاؤُهُ؟ وكيف يعذب وقد أَكَلَهُ السَّبْعُ وَأَكَلَتْهُ الطَّيُورُ الْجَارِحَةُ؟ وكيف يعذب الإنسان إذا انفجرَ وذهبَ قِطْعًا وَأَشْلَاءً حَتَّى يَتَعَذَّرَ مَعْرِفَتُهُ؟ نقول: إِنَّ الَّذِي أَوْجَدَ الْإِنْسَانَ مِنَ الْعَدَمِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُوْجِدَهُ بَعْدَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ، وَأَشَدُّ مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ: {قُلْ يُخَيِّبُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، فالله قادرٌ على أَنْ يُخْرِجَ هَذِهِ الْأَجْسَادَ بَعْدَ تَفْرِقِهَا وَتَمَزُّقِهَا، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

((قَالَ: لَوْلَا أَنْ تَجِدَ صَفِيَّةً)) فيه دليلٌ على مراعاة أهل الميت، فقد تُتْرَكُ بَعْضُ السُّنَنِ وَبَعْضُ الْأُمُورِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ مُسْتَحَبَّةً، وَلَيْسَتْ وَاجِبَةً، وَلَكِنْ أَهْلُ الْمَيِّتِ لَضَعْفِ الْإِيمَانِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ يُرَاعَى حَالُهُمْ، كَمَا رَاعَى النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَالَ صَفِيَّةٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا-.

((لَتَرَكْتُهُ حَتَّى تَأْكُلَهُ الْعَافِيَةُ))، ((لَتَرَكْتُهُ)): الضميرُ عائدٌ إلى جسد حمزة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وَإِلَّا فَرُوحُهُ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ كَمَا بَشَّرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِذَلِكَ الشُّهَدَاءَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-.

((لَتَرَكْتُهُ)): أي تركتُ الجسدَ.

((تَأْكُلُهُ الْعَافِيَةُ)): أي السباع، وسواء كانت من الطير، أو من الدواب ((تَأْكُلُهُ الْعَافِيَةُ)).
 ((حَتَّى يُحْشَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ بَطُونَهَا)) الله قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْرِجَهُ مِنْ بَطُونِ السَّبَاعِ، وَهَكَذَا إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ فُرِّمِيَ فِي الْبَحْرِ، فَإِنَّهُ يُكْفَنُ فَلَرُبَّمَا تَنْتَهَشُهُ الْحَيْتَانِ، وَيَتَفَرَّقُ بَيْنَ الْحَيْتَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْرِجَهُ مِنْ تِلْكَ الْأَمَاكِنِ الَّتِي هِيَ فِي قَعْرِ الْمَحِيطَاتِ، أَوْ قَعْرِ الْبَحَارِ لَا يَعْجُزُ اللَّهُ شَيْئًا.
 قَالَ: ((ثُمَّ دَعَا بَنِمْرَةَ، فَكَفَّنَهُ فِيهَا)) النَّمِرَةُ: الْبُرْدَةُ مِنَ الصُّوفِ مَخْطُطٌ، قِيلَ: مِنْ صُوفٍ أَوْ غَيْرِهِ، فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: يَشْمَلُ الْكِسَاءَ أَيْضًا.

((فَدَعَا بَنِمْرَةَ)): وَهَذَا هُوَ مَا غَطَّى بِهِ حَمْزَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-؛ لِأَنَّهُ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى هَذِهِ التَّغْطِيَةِ وَإِلَّا فَإِنَّ الْأَصْلَ أَنَّ الشَّهِيدَ يُزَمَّلُ بِثِيَابِهِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا.

((فَكَانَتْ إِذَا مُدَّتْ عَلَى رَأْسِهِ بَدَتْ رِجْلَاهُ، وَإِذَا مُدَّتْ عَلَى رِجْلَيْهِ بَدَا رَأْسُهُ)) هَذَا يَدُلُّ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَصْحَابُهُ مِنْ ضَيْقِ الْحَالِ وَضَيْقِ الْعِيشِ، وَلِذَلِكَ كَانَ عَتَبَةُ بْنُ غَزْوَانَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- يَقُولُ: (وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سَابِعَ سَبْعَةٍ، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقَ الشَّجَرِ، وَإِنَّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ، فَلَمْ نَلْبِثْ حَتَّى أَصْبَحَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا عَلَى مَصْرٍ، وَذَكَرَ مُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ)، فَكَانَ الصَّحَابَةُ إِذَا ذَكَرُوهُ بَكَوْا قَالَ: (إِنَّهُ كَانَ لَهُ شِمْلَةٌ، إِذَا غَطَّوْا بِهَا وَجْهَهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ، وَإِذَا غَطَّوْا بِهَا رِجْلَيْهِ بَدَا وَجْهُهُ) فَقَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : ((غَطَّوْا بِهَا وَجْهَهُ وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ إِذْخَرًا، أَوْ شَيْئًا مِنَ الْإِذْخَرِ)).

((قَالَ: فَكَثُرَ الْقَتْلَى، وَقَلَّتِ الثِّيَابُ)) فَكَثُرَ الْقَتْلَى يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَلَّتِ الثِّيَابُ، وَالْمُرَادُ بِالثِّيَابِ: مَا يُغَطُّونَ بِهِ وَيُكْفَنُونَ بِهِ.

قَالَ: ((فَكْفَنَ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالثَّلَاثَةُ فِي الثُّوبِ الْوَاحِدِ، ثُمَّ يُدْفَنُونَ فِي قَبْرِ وَاحِدٍ)) هَذَا عَلَى الْأَصْلِ أَنَّهُ إِذَا ضَاقَ الْحَالُ يَلْتَمَسُ أَقْرَبَ الْأَشْيَاءِ إِلَى الْمَسْنُونِ وَالْمَشْرُوعِ، وَلِذَلِكَ يُجُوزُ دَفْنُ الثَّلَاثَةِ فِي الْقَبْرِ الْوَاحِدِ، وَالْأَرْبَعَةِ فِي الْقَبْرِ الْوَاحِدِ، وَالْأَصْلُ الْمَسْنُونُ أَنَّ الْمَيِّتَ يُدْفَنُ فِي قَبْرِ لَوْحَدِهِ وَلَكِنْ هَذَا مِنْ كَمَالِ الشَّرِيعَةِ، الشَّرِيعَةُ فِيهَا أَصْلٌ، وَفِيهَا مُسْتَنْبَاتٌ.

وَالْمُسْتَنْبَاتُ: هِيَ الْأُمُورُ الْخَارِجَةُ عَنِ الْأَصْلِ، الَّتِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْمَلَ النَّاسُ فِيهَا بِالْأَصْلِ، وَهِيَ فِي حَالَةِ كَثَرَةِ الْمَوْتَى، كَمَا ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ وَالْأَئِمَّةُ، إِذَا كَثُرَ الْمَوْتُ بِسَبَبٍ وَبَاءٍ لَا قَدْرَ لِلَّهِ، أَوْ بِسَبَبِ مَعْرَكَةٍ، فَيَكْثُرُ الْمَوْتَى، فَحِينَئِذٍ تَكُونُ أَحْوَالُ خَاصَّةٍ، وَأَحْكَامُ خَاصَّةٌ تَتَنَاسَبُ مَعَ ضَيْقِ الْحَالِ، وَالْقَاعِدَةُ: "أَنَّ

الأمر إذا ضاق اتسع"، وهذا من الضيق، أنه إذا كثُر القَتلى فإنه لهم أحكامٌ تخصُّهم في التكفين وفي القبر.

((فجعل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يسأل عنهم: أيُّهم أكثرُ قرآنًا، فيقدمه إلى القبلة)): ((فجعل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يسأل عنهم)):، أي يسأل أصحابه ((أيُّهم أكثرُ قرآنًا)) فيه دليلٌ على أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لا يعلم الغيب إلا ما أعلمه الله - عَزَّ وَجَلَّ - ((أيُّهم أكثرُ قرآنًا)):، وهذا ثابت في الصحيح أنه كان يسأل.

وهناك من يبالغ في النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه يعلم، وأنه كُشِفَ له اللوحُ المحفوظ، هو - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بَشَّرَ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ، فعَلَّمَهُ ما لم يكن يعلم، ولكن علمه محدودٌ مقصورٌ بالشيء الذي علَّمه اللهُ إياه، ليس هناك أحد يستطيع أن يعلم الغيب إلا الله، ولذلك استأثر اللهُ بهذه الصفة العظيمة: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}، وقال سبحانه: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}.

فكلُّ من يغلو في النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الغلو الذي لا يليق به - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، لله حقٌّ، وللنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حقٌّ، والله قَدَرٌ، وللنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدَرٌ، لله حقٌّ، حقُّ الخالق - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وللنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حقٌّ وقَدَرٌ، حقُّ المخلوق الذي يليق به - بِأَيِّ وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -، فهو عَبْدٌ من عِبَادِ اللهِ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا: ((يا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت، لا أملك لك من الله شيئًا)).

فلا يجوز الغلو في النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وادعاء أنه يعلم الغيب، وأنه كُشِفَ له كلُّ شيء، وأنه، وأنه، فهو - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يسأل أصحابه: ((أيُّهم أكثرُ قرآنًا)):، ما يعلم.

بعض الذين - نَسَأَلُ اللهُ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ - يشطحون ويبالغون يأتي ويقول: كُشِفَ له، أن هذا أعلم من هذا، وأن هذا أعرف من هذا، وهي شياطين، ممكن أن يخبر الشيطان مثل هؤلاء فيعتقدون فيمن يزعمون أنهم أولياء أنهم يكشفون، هذا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، أهم خيرٌ من رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؟! حاشا والله، فهذا يدلُّ على ضعف العبد أمام الخالق المعبود سبحانه.

وهذه الأمة زكاهها الله بالوسطية والاعتدال أتمَّها خرجت من الغلو، وسلمت من الإجحاف، إجحاف اليهود، ومن غلو النصارى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}، {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ}: هم الذين أجحفوا {وَلَا الضَّالِّينَ}: هم النصارى الذين بالغوا، فالنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جعل يسأل أصحابه.

فيه دليلٌ على مشروعية إخبار الإنسان بعلمه، أنّه يحفظ من القرآن كذا، أو يحفظ من السنة كذا بدليل: أنّ الصحابة ما كانوا ليعلمون لولا أنّ الميثَ أخبرهم أنّه يحفظ من القرآن هذه السور، أو يحفظ من الآيات كذا وكذا، فدلّ على جواز التحدث بالعلم.

لكن شرطُ هذا: أن تُؤمّنَ معه الفتنة، ألا يكون مقصوده الرياء والسمعة: ((فمن رأى راءى الله به، ومن سمع سمع الله به))، وإنّما يكون مقصوده، مقصوداً شرعياً.

والسائل أيضاً مقصوده مقصودٌ شرعيّ، فلا يقصد من هذا ما يمتنع ويحظر شرعاً، وإنّما يقصد من هذا أن يسأل أخاه عن حفظه؛ لكي يشحذ همته ويحتقر نفسه، فينافسه في الخير. أمّا إذا كان الغرض غير شرعيّ، مثل: المبالغة، ومعرفة الناس بعلم الإنسان على سبيل التعالي فهذا لا يجوز.

ففيه دليل على مشروعية إخبار الإنسان بما يعلم؛ لأنّه ما كان للصحابة أن يعلموا بحفظ الرجل إلا إذا أخبرهم.

((أيهم أكثر قرآناً)): فيه دليلٌ على أنّ المرادَ بالأكثر قرآناً: أكثر حفظاً، وليس المراد به إتقان القراءة، وقد قال -عليه الصّلاة والسّلام-: ((يؤمّ القوم أقرأهم لكتاب الله)).

فاختلف العلماء في قوله: ((أقرأهم لكتاب الله)) هل المراد به كثرة الحفظ أم المراد به التجويد؟

وذلك على وجهين مشهورين:

أقواهما أنّه الأكثر حفظاً؛ لأنّ النبي -صلى الله عليه وسلّم- قال في حديث عمرو بن سلّمة في الصحيح قال لهم: ((صلّوا صلاة كذا في حين كذا وكذا، وليؤمّكم أكثركم قرآناً))، فقوله -عليه الصّلاة والسّلام-: ((وليؤمّكم أكثركم)) دلّ على أنّ العبرة بكثرة المحفوظ.

وهذا يدلُّ أيضاً من جهة ثانية على: أنّ الأكثر حفظاً للقرآن أعظم منزلة في الشرع ممن هو أقل حفظاً للقرآن، وأنّ القرآن يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة، ولذلك شرف الله أهل القرآن شرفاً عظيماً، فجعلهم مقدّمين في أعظم المواقف وأجلها وأشرفها، وهو الموقف بين يدي الله في الصلاة، فأمر المسلمين أن يقدّموا حفظاً كتاب الله، وهم أولى بهذا المقام العظيم، كما قال -صلى الله عليه وسلّم- في الحديث الصحيح: ((يؤمّ القوم أقرأهم لكتاب الله))، فهذا يدلُّ على فضل القرآن، وفضل أهله، وشرف حفظ القرآن، والاشتغال بحفظ القرآن.

ومن أعظم النعم التي يُنعمُ الله بها على عبده أن يرزقه القرآن، فأسعدُ الناس في هذه الدنيا من جعلَ الله القرآنَ ربيعَ قلبه، ونورَ صدره، وجلَاءَ حزنه، وذهابَ همه وغمه.
من شغله الله في القرآن، فاشتغل به على الوجه الذي يرضي الله، فأكثر من تلاوته وتدبره وحفظه، والسؤال عن معانيه وعن أحكامه، فأحلَّ حلالَ الله، وحرَّم حرامَ الله، فهذا بخير المنازل عند الله -عزَّ وجلَّ-.

أهل القرآن هم أهلُ السعادة، وهم أهلُ الحسنى وزيادة، جعلنا الله وإياكم منهم، فهم أعلم الناس بدين الله إذا فقهوا في القرآن، وعملوا به، وهم أعظم الناس أجرًا عند الله إذا علَّمُوا الناس هذا القرآن، ولذلك شهد لهم النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالخيرية كما في الحديث الصحيح فقال: ((خيركم من تعلَّم القرآنَ وعَلَّمَهُ))، وأسعد الناس من التزم بطاعة الله، ففكر أول ما فكر كيف يحفظ القرآن، وكيف يتعلم حلاله وحرامه، وكيف يستزيد من القرآن، ولا يزال الرجلُ بخير إذا كان في كل يوم إذا أصبح أو أمسى سأل: ما الذي حفظه من القرآن؟ واشتغل وجد واجتهد في ضبط هذا القرآن والعلم به والعمل به، جعلنا الله وإياكم ذلك الرجل، ورزقنا وإياكم الإخلاص في جميع ذلك.

فقدَّم النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أهل القرآن، قدَّمهم في الدنيا، وقدَّمهم حتى في موتهم، ولا يزال القرآنُ يرفع صاحبه بعد موته، وقبل أن يُدفن، يُقدَّم ويكون أقرب إلى القبلة، إذا وُضِعُوا في القبور قُدِّم الحافظ للقرآن على غيره، يكون أقرب إلى القبلة.

وفيه دليلٌ على أنَّ القربَ من القبلة أفضل، وهذا دلَّت عليه السُّنَّةُ أَنَّ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثبت في الحديث الصحيح: ((أَنَّ موسى لما حضرته الوفاة -وكانت قد حضرته الوفاة وهو مع بني إسرائيل في التيه في سيناء- ولما حضرته الوفاة سألَ رَبَّهُ أَنْ يُقَرِّبَهُ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ)) وهذا يدلُّ على أَنَّ الأفضل القرب إلى القبلة والأرض المقدسة، وهو أكمل.

ومن هنا الدَّفْنُ في المعلاة أفضل من الدَّفْنِ في غيرها؛ لأنَّها أقرب إلى الأرض المقدسة؛ لظاهر حديث موسى -عليه السلام- في الصحيح.

وهذا نبينه؛ لأنَّ بعض المتأخرين يقول: إِنَّ الدَّفْنَ في مقبرة السَّيْلِ أفضل، لكن الصحيح أَنَّ الدَّفْنَ في مقبرة المعلاة أفضل؛ لأنَّها أقرب، وظاهر حديث موسى -عليه السلام- يَقْوِي ذلك.

قال: ((فدفنهم رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولم يصلِ عليهم))، ((فدفنهم رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-)) أي أَمَرَ بدفنهم، وفيه دليلٌ على مشروعية دفن الموتى، ودفن القتلى.

والشرط في أن يُعَامَلَ الشهداء هذه المعاملة: أن يقتل في أرض المعركة، فإذا قُتِلَ في أرض المعركة، فحينئذٍ تنطبق عليه هذه الأحكام، ومنها: أن لا يصلى عليه، فالشهيد لا يصلى عليه وهو قول جمهور العلماء -رَحِمَهُمُ اللَّهُ-، وهذا الحديث يدل على ذلك.

وما ورد من صلاته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- على شهداء أُخِذَ بعد دفنهم: هذا خاصٌّ، أو المراد بالصلاة الدعاء.

فقد ثبت في الحديث الصحيح عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ما يدل على فضل هؤلاء الشهداء وعلو منزلتهم عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- حتى إنه كما في الصحيح زَارَهُمْ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قبل وفاته كالمودع لهم -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: ((النِّمْرَةُ: الْكِسَاءُ الْخَلْقُ: الْقَدِيمُ، وكما قلنا: النِّمْرَةُ في لسان العرب هي: إِمَّا أَنْ تَكُونَ بُرْدًا، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ كِسَاءً.

وإذا كانت بُرْدًا، تشمل البُرْد من الصوف، وغيره، كالكتان، القطن، فهذه تكون نَمْرَةً، لكنها إذا كانت من البُرْد يقول: لا تُسَمَّى نَمْرَةً إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِيهَا خُطُوطُ.

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْكِسَاءِ: فهذا قول ثانٍ فيها، قيل: إِنَّهَا الْكِسَاءُ، كما مال إليه المصنف -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

وهذا ليس من عادته -رَحِمَهُ اللَّهُ- أن يفسر غريب الأحاديث، هذا ليس من عادة الإمام الترمذي -رَحِمَهُ اللَّهُ-، ولكن في بعض الأحيان قد يُشير إلى نكتة، وهي عنايته بما رواه أو عنايته بالمروى.

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: وقد حُوِّلَ أسامة بن زيد في رواية هذا الحديث، فروى الليث بن سعد عن ابن شهاب عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن جابر بن عبد الله بن زيد، وروى معمر عن الزهري عن عبد الله بن ثعلبة عن جابر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، ولا نعلم أحدًا ذكره عن الزهري عن أنس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- إلا أسامة بن زيد -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وسألت محمدًا عن هذا الحديث؟ فقال: حديث الليث عن ابن شهاب عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن جابر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أصحُّ.

الشرح:

هذا سنوخره -إن شاء الله- الكلام على الأسانيد كما اتفقنا.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: [بَابُ آخِر]

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ عَنْ مُسْلِمٍ الْأَعْوَرِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: ((كَانَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَعُودُ الْمَرِيضَ، وَيَشْهَدُ الْجَنَازَةَ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْعَبْدِ، وَكَانَ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلٍ مِنْ لَيْفٍ، عَلَيْهِ إِكَافُ لَيْفٍ)).

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: هذا حديثٌ لا نعرفه إلا من حديثِ مُسْلِمٍ عن أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: ومُسْلِمٌ الْأَعْوَرُ يُضَعَّفُ، وهو مُسْلِمٌ بْنُ كَيْسَانَ، تُكَلِّمُ فِيهِ، وقد روى عنه شعبة وسفيان الملائني.

الشرح:

هذا الحديث اشتمل على جملةٍ من الصفات التي اتصف بها -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- ومناسبتها: في اتباع الجنائز، وعيادة المريض تتبع مسائل الجنائز، كما هو مقررٌ عند العلماء من المحدثين والفقهاء، فالمناسبة فيه وعلاقته بكتاب الجنائز موجودة.

واشتمل هذا الحديث على جملةٍ من صفات النبي الكريم -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، وهي تدلُّ دلالةً واضحةً على تواضعه -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، وكرم خلقه، وأنَّه كان أبعد ما يكون عن الزَّهو والعلو والتكبر والتجبر، فكان -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- نبياً مرسلًا، أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وأسوةً للمؤمنين والأخيار والصالحين، فأخلاقُ الأنبياء أخلاقٌ ساميةٌ، أخلاقٌ زاكيةٌ، ولذلك هم أبعدُ الناس عن العلو في الأرض، واختصَّهم اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بهذه الخصائص، وهذه الصفات التي تدلُّ على أنَّهم من أهل الآخرة، وأنَّهم ليسوا من أهل الدنيا: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}، ما كان فيهم العلو، ولا كان فيهم البطر، ولا الأشر، وما كان -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بطراً ولا أشرًا وما كان سباباً ولا صخاباً، ولكن كان رحمةً للعالمين -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

ومن هذه الأخلاق وهذه الصفات منها ما ورد في الكُتُب السماوية السابقة؛ لكي تدلَّ على هذا النبي الكريم، ومنها ركوبه للحمار -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- والأنبياء والعلماء وكل من ينتسب إلى

الآخرة ليس عزُّه بالثياب المنمَّقة، ولا بالعبارات الملقَّقة، ولكن عزُّه بالمبدأ، والعلماء هم أشبه الناس بالأنبياء، وهم ورثة الأنبياء، ولذلك ينبغي للعلماء والصلحاء أن يأخذوا من هدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وسنته في مثل هذه الصفات، فالمسلم إذا سَمِعَ بمثل هذه الأحاديث من شمائله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- الكريمة يُهَيِّئُ نفسه للاقتداء بالنبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وهذه الصفات منها ما هو حسي يُقَصَّد به المعنى.

يقول -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، وهو أنسٌ خادِمُ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، الذي صحب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عشر سنين قال -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((فَمَا قَالَ لِي يَوْمًا قَطُّ أَفٍّ، وَمَا مَسَسْتُ دِيْبَا جًا وَلَا حَرِيرًا أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَلَمْ يَقُلْ لِي يَوْمًا لَشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: هَلَا فَعَلْتُهُ، وَلَا لَشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتُهُ؟)) وهذا كله من كَرَمِ خلقه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَعُودُ الْمَرِيضَ))، ((كَانَ)): تدلُّ على الدوام والاستمرار. ((يَعُودُ الْمَرِيضَ)): تقدَّم معنا بيان عيادة المريض، وما فيها من الفضل، والنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جَمَعَ في التَّغْيِيبِ في عيادة المريض بين القول، والفعل:

أَمَّا الْقَوْلُ: فَإِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((مَنْ عَادَ مَرِيضًا فَهُوَ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَعُودَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَمَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: جَنَاهَا)).

ومن السنة القولية: حديثُ البراء بن عازب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- في الصحيحين قال: ((أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجَنَازَةِ، وَإِبْرَارِ الْمُقْسِمِ)). فهذا يدلُّ على هديه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- القولِيَّ في عيادة المريض.

وَأَمَّا هَدْيُهُ الْفَعْلِيُّ: فحديث أنس يدلُّ على أَنَّهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كَانَ يَعُودُ الْمَرِيضَ، بَلْ كَانَ يَعُودُ الْمَرِيضَ إِذَا كَانَ كَافِرًا، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهِ النِّجَاةَ مِنَ النَّارِ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ بِطَرِيقَتِهِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- الَّتِي يُقِيمُ بِهَا الْحُجَّةَ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ-.

((وَيَشْهَدُ الْجَنَازَةَ))، ((وَيَشْهَدُ)): الشهود هنا الحضور، "شَهِدَ" إذا حضر، وَتَمَّيَّ الشَّهِيدُ شَهِيدًا؛ لِأَنَّهُ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ فِي تَفْسِيرِهِ.

((وَيَشْهَدُ الْجَنَازَةَ))، ((الْجَنَازَةَ)): تَطْلُقُ وَيُرَادُ بِهَا الْمَيِّتُ، وَتَطْلُقُ وَيُرَادُ بِهَا السَّرِيرُ وَمَا عَلَيْهِ.

قوله: ((يشهد الجنازة)) أفضل وأكمل ما يكون به شهود الجنازة: أن يخرج الإنسان معها من المنزل أو الموضع الذي تُغسَل فيه، حتى تُدفن، ويُنتَهَى من دفنها، ويدعو لها ويسأل لها الثبات، ثم يَعْرِضُ أهلها، هذا أكمل ما يكون من الشهود.

واختلف السلف والأئمة: هل إذا شهدها يستأذن أهل الميت إذا أُنتَهِيَ ودفن في الانصراف أو لا يستأذن؟

على وجهين مشهورين عند العلماء -رَحِمَهُمُ اللَّهُ-:

وكان الإمام مالك -رَحِمَهُ اللَّهُ- إمام دار الهجرة يقول: إنَّه إذا دُفِن الميت لا يحتاج إلى إذن، ينصرف راشداً.

وقال بعض أئمة السلف، وهو قول عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن سيرين والحسن البصري، وغيره من أئمة السلف: أنَّه لا بد أن يستأذن إذا شهدها على أكمل ما يكون من الشهود. وهذا الشهود الذي يجمع ما بين تشييع الجنازة من موضعها الأول، ثم الصلاة عليها، وشهود دفنها، هذا فيه القيراطان على أتم الوجوه وأكملها.

فمن صلى على الجنازة: كان له قِيرَاطٌ.

ومن شهدها حتى تدفن: كان له قِيرَاطَان.

والقيراط: مثل أُحَدٍ، وهذا يدلُّ على عِظَمِ الأجر الذي يناله الإنسان في تشييع جنازة المسلم، فإن كان له حقٌّ كالعالم والداعية والوالدين وذو الحَقِّ من القرابة ونحوهم كان الأجر فيه أعظم.

وكان -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يشهد الجنائز، أي يحضرها -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فشهد الجنازة،

وكان -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لا يُفَرِّقُ في شهود الجنازة بين الأغنياء والفقراء والأقوياء والضعفاء.

ولذلك لما ماتت المرأة السوداء التي كانت تَقُومُ المسجد -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا- تَقَالُوا شَأْنَهَا ودفنوها

في الليل، فَقَدَّهَا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فلما فَقَدَهَا سَأَلَ عنها -اللهم صلِّ وسلم عليه تسليماً،

وزده تشريقاً وتكريماً وتعظيماً- يسأل عن امرأة كانت تَكُنُّسُ المسجد، وتَقُومُ المسجد، كرمٌ خُلِقَ، فسأل

عنها، فقالوا: إِنَّمَا ماتت، فقال: ((هَلَا أَخْبَرْتُمُونِي بِهَا))، فقام -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كما في الصحيح،

وَوَقَفَ على قَبْرِهَا، وصَلَّى عليها، وهذا من خصوصياته، كما في رواية مُسْلِمٍ أَنَّهُ قَالَ: ((إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ

مملوءةٌ ظلمةً على أهلها، وَإِنَّ اللَّهَ يُنَوِّرُهَا بِصَلَاتِي عَلَيْهِم)).

فهذا مذهب جمهور العلماء في قوله: ((وَإِنَّ اللَّهَ يُنَوِّرُهَا بِصَلَاتِي)) يدلُّ على التخصيص.

وهذا الشهود منه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كان لعامة الناس، سواءً كانوا من الفقراء، أو من الأغنياء - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -.

((وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ)): وهذا مأثور في صفاته -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في الكُتُبِ السماوية أنه كان يركب الحمار؛ إشارةً إلى التواضع؛ لأنَّ العظماء والكبراء والمتكبرون والمتجبرون لا يركبون الحمير، وإنما يركبون الخيل، ويتباهون ويزهون، فيطلبون أفخر المراكب وأعلاها، ولا يركبون الحُمُرَ.

والنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يركبُ الحِمَارَ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، وثبت هذا في أكثر من واقعة، وذكر بعض أهل السير أنه كان له حمار يقال له: (يعفور) -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-

((وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْعَبْدِ)): أي أنه يجيب دعوة المملوك -بِأَيِّ وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- فإذا دعاه الصغير أو الكبير، الغني أو الفقير أجاب دعوته -صلوات الله وسلامه- عليه، ولا يخص بإجابة الدعوة الكبراء والعظماء، وإنما يجيب دعوة الناس على اختلاف مراتبهم، وهذا من أكمل ما يكون في التواضع، فيجيب دعوة المملوك -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-؛ إشارةً إلى تواضعه.

واستضافته يهوديةً على حُبْزٍ وإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، كما في حديث أحمد في مسنده.

واستضافته يهوديٌّ، فأجاب دعوته -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

واستضافته اليهوديةً كما في الصحيح التي سَمَّتهُ، ووضعت له السُّمَّ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-

وأجاب دعوتهَا، فهو -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كان يجيب الدعوة.

((وَكَانَ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحِلٍّ مِنْ لَيْفٍ، عَلَيْهِ إِكَافٌ لَيْفٍ)): ((كان يوم قريظة)):

العرب تقول: (يوم الأحزاب، ويوم بُعَاث، ويوم داحس، ويوم الغبراء) إشارةً إلى الوقعة، وإن كانت

أكثر من يومٍ، يقولون له: (يوم قريظة) المراد به وَقْعَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ.

وبنو قريظة: هم من فُخِذَ اليهود الذين كانوا في المدينة، وكان بينهم وبين النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

العهد حينما قدم المدينة، فنقضوا العهد وتماثلوا مع المشركين على رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

وكانوا في عالية المدينة، ولذلك قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن يوم الأحزاب: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ

أَسْفَلِ مِنْكُمْ}، {من فوقكم}: هم بنو قريظة، {وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ}: هم الأحزاب الذين تحزَّبوا، قال

: (أَتَيْتُ بِغَطْفَانٍ فَأَنْزَلْتُهُنَّ بِمَجْمَعِ الْأَسْيَالِ مَنْ ذَنْبٍ نَقَمَاءَ).

ومجمع الأسيال: بجوار أُحُدٍ الذي يكون عند مفرق الطريق الموجود الآن إلى ما يسمى بـ(الحُلَيْل) هذاك مجمع الأسيال، تجمع فيه الأحزاب.

فالمدينة من جهة قباء والعوالي عالية، ومن جهة أُحُدٍ سافلة، أسفل المدينة، فهي منقلبة منكفئة، فقال الله: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ} من منازل بني قريظة؛ لأنهم نقضوا العهد ونكثوه، {وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ}؛ لأنَّ الأحزاب تحزبوا وتجمعوا من الجهة، أُحُدٍ، من طرف أُحُدٍ، جاءوا حتى دخلوا إلى مشارف الخندق عند جبل بني حارثة، وهو بالمنطقة التي تسمى بـ(المساجد السبعة) معروفة إلى يومنا هذا، فهي من سافلة المدينة بالنسبة إلى أقصاها.

فبنو قريظة نكثوا العهد ونقضوه، ولما فرغ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- من غزوة الخندق، ورجع على بيته على صلاة الظهر، جاءه جبريل، وقال له: ((إِنْ كُنْتَ قَدْ وَضَعْتَ لِأَمْتِكَ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تَضَعْ لِأَمْتِهَا إِلَى بَنِي قَرِظَةَ))، فأمر -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أصحابه أن يخرجوا إلى بني قريظة، وقال: ((لَا تَصْلُوا الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرِظَةَ)) في القصة المشهورة.

فخرج إليهم -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وأنزل الله الذين كفروا من اليهود من صياصبيهم، وقذف في قلوبهم الرعب، ونزلوا على حكم سَعْدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- الذي كما في الحديث الصحيح أمر أن تُقْتَلَ مقاتلتهم، وأن تُسَبَّى ذراريهم.

فهذا اليوم يوم بني قريظة، يوم أعزَّ الله فيه الإسلام، ورفع الله فيه مكانة الإسلام، وكان -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- على حمار، ما جاء يركب المركب الفارة، ولا تعالى -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ولا تعاضم. ولما دخل يوم فتح مكة -بِأَيِّ وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- دَخَلَ وَعَلَى رَأْسِهِ الْمَغْفِرَ، وَقَدْ طَاطَأَ رَأْسَهُ حَتَّى تَكَادَ لَحِيَّتُهُ تَمَسُّ قَرْبُوسَ سَرَجِهِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كما في الحديث الصحيح ((تَكَادُ لَحِيَّتُهُ أَنْ تَمَسَّ قَرْبُوسَ سَرَجِهِ))؛ من التواضع لله -عَزَّ وَجَلَّ-.

فكان -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أكمل الخلق تواضعًا.

وهذا التواضع منشأ الخوف من الله والخشية لله، وإذا رأيت الرجل يتواضع فغالبًا أنَّ وراء هذا التواضع قلبًا يخاف الله؛ لأنَّه لا يتواضع إلا أهل الخشية، ولا يتواضع إلا أهل الخوف من الله سبحانه، فلما كَمُلَ خوفه من ربه كَمُلَ تواضعه -بِأَيِّ وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

وقد قال في الحديث الصحيح: ((إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَحْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتَقَاكُمْ)).

فكان على حِمَارٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -، ما جاءهم - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - متعاليًا، ولا متكبرًا، ولا متجبرًا.

ولذلك لما مَشَى أَبُو دُجَانَةَ يَوْمَ أُحُدٍ، فتبخرت بسيف النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قال - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: ((إِنَّهَا لَمَشِيَّةٌ يَبْغُضُهَا اللَّهُ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْطِنِ)).

فالمقصود أَنَّ أَخْلَاقَ الْأَنْبِيَاءِ كَانَتْ أَخْلَاقًا سَامِيَّةً عَالِيَةً؛ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وَمِنْ عَرَفَ اللَّهَ كَمَلَتْ أَخْلَاقُهُ، وَحَسُنَتْ سَجَايَاهُ، وَكَمَلَتْ سَجَايَاهُ وَأَخْلَاقُهُ، وَحَسُنَتْ أَفْعَالُهُ، نَسَأَلَ اللَّهُ بِعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ أَنْ يَرْزُقَنَا حَسَنَ الْإِتْسَاءِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -.

إِذَا نَظَرْتَ إِلَى هَذَا الْهَدْيِ حِينَمَا تَرَى أَنَّ الرِّسْلَ وَالْأَنْبِيَاءَ تَجَرَّدُوا مِنَ الدُّنْيَا، وَخَرَجُوا أَمَامَ النَّاسِ وَهُمْ لَا يِبَالُغُونَ فِي مَلْبَسِهِمْ وَهَيَأَتِهِمْ، انصرفتِ النَّاسُ إِلَى الْمَعَانِي، وَلَمْ تَنْصَرَفْ إِلَى الصُّورِ وَالْأَشْكَالِ، لَكِنْ مِنْ خِلَا جَوْفُهُ، وَلَمْ تَرْكُ نَفْسُهُ يَرِيدُ أَنْ يَكْمَلَ هَذَا النِّقْصَ، وَهِيَهَاتَ، فَتَجِدُهُ يِبَالُغُ فِي زِيهِ وَمَلْبَسِهِ وَهِيَأَتِهِ وَشَارَتِهِ: ((رُبُّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، ذِي طِمْرَيْنِ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ)).

الْإِنْسَانُ إِذَا كَمَلَتْ سَرِيرَتُهُ لَمْ يِبَالِ بِالَّذِي يَلْبَسُ، قَالَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: (إِنَّكَ إِنْ اتَّقَيْتَ رَبَّكَ لَمْ يَضُرَّكَ مَا لَبَسْتَ).

الَّذِي يَخَافُ اللَّهَ وَيَخْشَاهُ وَيَتَّقِيهِ يورثُهُ اللَّهُ الْحَبَّ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ وَالْهِبَةَ وَالْعِزَّةَ وَالْكَرَامَةَ؛ لِأَنَّهَا عِزَّةُ اللَّهِ الَّتِي لَا ذِلَّةَ مَعَهَا، لَكِنْ إِذَا كَانَ نَاقِصًا فِي جَوْفِهِ، وَنَاقِصًا فِي كِمَالَاتِهِ وَآدَابِهِ وَأَخْلَاقِهِ، طَلَبَ مَا يُكْمِلُ بِهِ هَذَا النِّقْصَ، وَلِذَلِكَ زِينَةُ الْعُلَمَاءِ، وَزِينَةُ الْفُضَلَاءِ، وَزِينَةُ الصُّلَحَاءِ بِمَبَادِئِهِمْ.

وَمِنْ قَالَ: إِنَّ النَّاسَ، وَإِنَّ السَّعَادَةَ وَالْعِزَّةَ بِالْمَالِ وَبِالتَّعَالِي وَبِالتَّكْبَرِ، فَقَدْ كَذَبَ، فَإِنَّ قَارُونَ كَانَتْ مِفْتَاحَ كَنْزِهِ تَنْوُّ بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ، فَمَا زَادَهُ الْمَالُ إِلَّا خِيْبَةً وَخَسَارَةً، {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ}، فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَنْزِلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ -.

فَالْعِزَّةُ لَا تَكُونُ إِلَّا بِخَشْيَةِ اللَّهِ، وَالْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ.

وَلِذَلِكَ يَبَيِّنُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ((أَنَّهُ مَرَّ رَجُلٌ ضَعِيفُ الْحَالِ، فَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: مَا تَعُدُّونَ هَذَا فِيكُمْ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا إِذَا سَأَلَ لَمْ يُعْطَ، وَإِذَا شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ، وَإِذَا اسْتَنْكَحَ لَا يُنْكَحَ، فَجَاءَ رَجُلٌ حَسُنَ الْحَالِ، وَعَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ فِي هَيْئَتِهِ وَشَارَتِهِ، قَالَ: مَا تَعُدُّونَ هَذَا فِيكُمْ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا حَرِي إِذَا سَأَلَ أَنْ يُعْطَى وَإِذَا

اسْتَنَاحَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِذَا شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ))، قال كما في الصحيح -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((والذي نفسي بيده، لهذا خيرٌ من مِلءِ الأرضِ من هذا)).

ولذلك قال الله تعالى: {لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ}، والسخرية تكون بالملابس وبالمظاهر، وهذا يدلُّ على أنَّ كمالَ الإنسان بدينه وأخلاقه.

فالنَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والأنبياءُ والرُّسُلُ بعثهم الله بهذه الصفة، أُنْهَم رَعُوا الكمالَ في أصله، فَرَفَعَ اللَّهُ بِذَلِكَ أقدارهم ومنازلهم -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-.

((على حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِجَبَلٍ مِنْ لَيْفٍ))، ((مَخْطُومٍ)): الخطام يكون أشبه بالزمام الذي يكون للبعير، ويكون على أنفه لِيَنْقَادَ به.

((بِجَبَلٍ مِنْ لَيْفٍ))، الليف: يؤخذ من كرانيف النخل، يصنع منها، وهذا من أزهد ما يكون.

((عليه إِكافُ لَيْفٍ)): الإكاف على الحمار -أكرمكم الله- مثل الغطاء الذي يكون على ظهر الحمار، مثل السَّرَج الذي يكون على الفرس، بحيث إذا ركب عليه إذا تَعَرَّقَ أو شيء، يحفظ له هذا يدلُّ على ضعف الحال وعلى يسره -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، -اللهم صلِّ وسلم عليه-

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح.

وَأَخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم